تنبيهٌ مُهِمٌّ لِمَن أرادَ أنْ يُـنَاظِرَ

اعلَموا -وفَّقكُمُ اللهُ تَعالى وحَفِظكُم- أنَّ مَن أرادَ أنْ يُناظِرَ كافرًا مُلْحِدًا فلا بُدَّ أن يَتعلَّمَ قبلَ أنْ يتكلَّمَ، لا بُدَّ أنْ يكونَ مُتمكِّنًا بالعلمِ والأحكامِ لِيُدافِعَ عن دينِ اللهِ تَعالى ويُقِيْمَ الحُجّةَ على مَن ناظَرَهُ، وذلكَ لأنّ مَن ناظَرَ مِن غيْرِ عِلمٍ قد يُفْسِدُ أكثرَ مِمّا يُصْلِحُ، وقد يُهْلِكُ نفْسَهُ أيضًا، ولا بدَّ أنْ يكونَ مُخلِصًا للهِ تَعالى في نِيَّتِهِ، وأنْ يكونَ مُرادُهُ مِنَ المُناظَرةِ إظهارَ الحقِّ والأخذَ بِيَدِ مَن ضَلَّ إلى الصَّوابِ والصِّراطِ المستقيمِ، وأنْ يُحِبَّ لهُ الخَيرَ كما يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ، فمَن تكلَّمَ بلا عِلمٍ هلَكَ وأهلَكَ غيْرَهُ، ومِنَ النّاسِ مَن تكلَّمَ بلا عِلمٍ وكانَ مُرادُهُ أنْ يأخُذَ بِيَدِ مَن كلَّمَهُ إلى الحقِّ فإذْ بهِ يَضِلُّ بسببِ جهلِهِ، ومِن أمثِلةِ ذلكَ سؤالُ بعضِ النّاسِ للكافرِ سؤالًا معَ العِلمِ أنّ المسؤولَ سيُجِيبُ بالكفرِ! ومعلومٌ أنَّهُ لا يجوزُ إعانةُ الكافرِ على الكُفرِ أوِ الرّضا لَهُ بالكُفرِ أوِ استجرارُهُ لِيَنطِقَ بكلمةِ الكُفرِ، أو نحْوُ ذلكَ، ومِمَّا يَدُلُّ على ذلكَ قولُ اللهِ تَعالى في سورةِ الزُّمَرِ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، فهذهِ الآيةُ دليلٌ على أنَّ الرِّضاءَ بالكُفْرِ كُفرٌ كما قالَ ذلكَ الإمامُ النّوويُّ في كتابِهِ "روضةُ الطّالبينَ"، وقد قالَ اللهُ -تَبارَكَ وتَعالى- في مُحْكَمِ التّنزيلِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴿١١٠﴾﴾ [سورةَ آلِ عِمرانَ]، وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "مَن رأى مِنكُم مُنْكَرًا فلْيُغيِّرْهُ بِيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَستطِعْ فبِلِسانِهِ، فإنْ لَمْ يَستطِعْ فبِقلبِهِ، وذلكَ أضعفُ الإيمانِ" رواهُ مسلمٌ، ومعنى "وذلكَ أضعفُ الإيمانِ": أي أقلُّ ما يَلْزَمُ المُسْلِمَ فِعْلُهُ عِندَ رؤيةِ المُنْكَرِ لِيَسْلَمَ هو مِنَ المَعصيةِ. وأكبرُ المُنْكَرِ هُوَ الكفرُ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [سورةَ البقرةِ]، وقالَ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورةَ لُقمانَ]. ويَدُلُّ على ذلكَ أيضًا قولُهُ

تَعالى في سورةِ المائدةِ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴿٢﴾﴾، فمَن أعانَ إنسانًا على قولٍ أو فِعْلٍ أوِ اعتقادِ الكُفرِ فقد فارَقَ المِلّةَ، وقد قالَ الحافظُ الفقيهُ الإمامُ مُحَمَّدٌ مُرتَضَى الزَّبِيدِيُّ الحُسَينيُّ -رَحِمهُ اللهُ تَعالى- في المُجلَّدِ الثّاني مِن شرحِ كتابِ إحياءِ علومِ الدِّيْنِ ما نَصُّهُ: "ومَن أرادَ مِن خَلْقِ اللهِ أنْ يَكفروا باللهِ فهُوَ لا مَحَالةَ كافرٌ".

ورُوِيَ عن أبي حنيفةَ النُّعمانَ -رضِيَ اللهُ تَعالى عنْهُ- حِيْنَ رَأَى ابْنَهُ حَمَّادًا يُنَاظِرُ فِي الْكَلَامِ (أي العقيدةِ) فَنَهَاهُ، فَقَالَ (أي ابنُهُ): رَأَيْتُكَ تُنَاظِرُ فِي الْكَلَامِ وَتَنْهَانِي! فَقَالَ (أي أبوحنيفةَ): كُنَّا نُنَاظِرُ وَكَأَنَّ عَلى رُؤُوسِنَا الطَّيْرُ مَخَافَةَ أَنْ يَزِلَّ صَاحِبُنَا -أي نُجادِلُ ونحنُ نتمنّى ألّا يُخْطِئَ أو يَنْحرِفَ خَصْمُنا-، قالَ: وَأَنْتُمْ تُنَاظِرُونَ وَتُرِيدُونَ زَلَّةَ صَاحِبِكُمْ -أي هذا حالُكُم مِن حيثُ العُمومُ-، ثمَّ قالَ: وَمَنْ أَرَادَ زَلَّةَ صَاحِبِهِ -أي بحيثُ يُكذِّبُ الشَّريعةَ- فَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَكفُرَ، ومَن أرادَ أنْ يَكفُرَ صاحبُهُ، فقد كَفَرَ قبْلَ صَاحِبِهِ" اهـ. هكذا كانَ رحِمَهُ اللهُ تَعالى يُعلِّمُنا كيفَ نُناظِرُ، وأنْ يكونَ هدفُنا الوُصولَ إلى الحقِّ وليس زَلّةَ الخَصْمِ.

ومَن لَقَّنَ إنسانًا كلمةَ الكُفرِ لِيَتكلَّمَ بها، كفَرَ المُلقِّنُ وإنْ كان على وَجهِ اللَّعِبِ والضَّحِكِ، وقالَ المُلّا عليٌّ القاريْ -رَحِمهُ اللهُ تَعالى- في شرحِ الفقهِ الأكبرِ: "يُحكَى أنَّ شخصًا رَجَعَ إلى بلدِهِ بعدَ تحصيلِ بعضِ الفقهِ، فصارَ كلّما سُئِلَ عن مسألةٍ يقولُ: فيها وَجهانِ أو قولانِ، فقالَ لَهُ قائلٌ: أفي اللهِ شكٌّ؟! فقالَ: فيهِ الوَجهانِ أوِ القولانِ! فحَكَموا بِرِدَّتِهِ". اهـ. ومَن طلَبَ مِن شخصٍ أنْ يقولَ الكُفرَ أو حَثَّهُ عليهِ أو شجَّعَهُ عليهِ أو جَرَّهُ إليهِ بأمْرٍ أو سؤالٍ أو فِعْلٍ فقد حَثّهُ على الكُفرِ وجَرَّهُ إليهِ، فارَقَ المِلّةَ بذلكَ إجماعًا، كما نَصَّ على ذلكَ الإمامُ النّوويُّ والبَدْرُ الرَّشيدُ والمُلّا علِيٌّ القاريْ وغيرُهُم -رَحَماتُ اللهِ تَعالى عليهِم-.

ولا ينبغي لطالبِ الحقِّ أنْ يَتشوَّشَ في القاعدةِ الشَّرعيَّةِ الّتي ذَكرناها آنِفًا لقولِ اللهِ تَعالى في سورةِ الشُّعَراءِ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾، فليس معنى الآيةِ أنّ سيّدَنا إبراهيمَ -عليهِ السَّلامُ- أرادَ منهُم أنْ يقولوا: نحنُ نعبُدُ الأصنامَ، فإبراهيمُ -عليهِ السّلامُ- كانَ يَعرِفُ أنّهُم يَعبُدونَ الأصنامَ، فإنْ قالَ قائلٌ: إنّهُ سألَهُم حتّى يُجيبُوا بأنّهُم يَعبُدونَ الأصنامَ -والعِياذُ باللهِ تَعالى- يُقالُ لَهُ: لا فائدةَ بسؤالِهِم إنْ كانَ هذا هُوَ المُرادَ كما زعَمْتَ، فأيُّ بلاغةٍ في هذا؟! والقُرآنُ الكريمُ أعلى البلاغةِ، والصَّوابُ أنَّ قولَهُ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ كانَ لِتَبْكِيتِهِم، يعني: ما هذا الّذي تعبُدونَهُ مِن دونِ اللهِ تَعالى! ولَمْ يَسألْهُم حتّى يقولوا: نعبُدُ الأصنامَ، فهو يَعلَمُ حالَهُم وما يَعبُدونَ، إذًا؛ سيّدُنا إبراهيمُ ﷺ لَمْ يَسألِ القَوْمَ لِيُجِيبُوهُ أنّهُم كُفّارٌ يَعبُدونَ الأصنامَ، إنّما سألَهُم عن مَاهِيَةِ مَعبوداتِهِم لِيُظْهِرَ فَسادَ عبادتِهِم لها، يعني: حقيقةُ ما تعبُدونَهُ أنّهُ مِن خشبٍ أو حجرٍ فلا يَستحِقُّ العبادةَ، فهُو أرادَ تَبْكِيتَهُم، لكنْ هُمْ مِن شِدَّةِ تكبُّرِهِم ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾، أي أنّهُ سألَهُم: أليْس ما تَعبُدونَهُ حجارةً وخشبًا ومَعادِنَ قد صوّرتُموها بأيدِيْكُم ونقّشتُموها أنتُم وأنْتُمْ فيها فكيفَ تَعبُدونَها؟! فلا تَدُلُّ هذهِ الآيةُ إطلاقًا على جوازِ سؤالِ الكافرِ عن دِينِهِ لِيُجِيْبَ بالكُفرِ، ثمَّ هُمْ مِن تكبُّرِهِم أجابُوا بأوسعَ مِمّا سألَ عنْهُ، كما قالَ المُفسِّرونَ.

وهذا الّذي بَيَّنّاهُ تَدُلُّ عليهِ الآياتُ الأُخرى الواردةُ في كتابِ اللهِ تَعالى إخبارًا عن هذهِ القِصّةِ كقولِهِ تَعالى إخبارًا عن نَبِيّهِ إبراهيمَ -عليهِ السَّلامُ-: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [سورةَ الأنبياء]، فهُوَ عليهِ السَّلامُ يَذُمُّهُم على عبادتِهِم لها؛ لأنّهُم عبَدُوا أشياءَ هُمْ صنَعوها، لذلكَ سألَهُم، أي أنتُم

تَعبُدونَ شيْئًا تَصنَعونَهُ أنتُم! فهُوَ لا يَستحِقُّ العبادةَ، ولَمْ يسألْهُم حتّى يقولوا: نعبُدُ أصنامًا، ويَدُلُّ على ذلكَ أيضًا قولُ اللهِ تَعالى حكايةً عن نَبِيّهِ إبراهيمَ -عليهِ السَّلامُ-: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورةَ الصَّافَّاتِ]، ومعنى الآيةِ أنَّهُ أرادَ أنْ يَعِيْبَ عليهِم لعبادتِهِم ما يَنحِتُونَ هُمْ بأيْدِيْهِم ويَترُكونَ عبادةَ مَن خلَقَهُم وخلَقَ أعمالَهُم، ويَدُلُّ على أنَّ هذا هُوَ المُرادُ قولُهُ تَعالى في سورةِ الصَّافَّاتِ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾، فإنَّهُ نَصٌّ ظاهرٌ جَلِيٌّ أنّ سؤالَ سيّدِنا إبراهيمَ ﷺ لَمْ يَكُنْ لِيُجِيبُهُ قَوْمُهُ بجوابِ كفرٍ وإنّما كانَ إنكارًا لَهُم وإظهارًا لفَسادِ دِيْنِهِم وعبادتِهِم.

ولا يُستنكَرُ مِثْلُ هذا الأسلوبِ مِنَ الكلامِ عندَ أهلِ المَعرِفةِ، فإنَّ علماءَ اللُّغةِ جعَلوا للاستفهامِ معانِيَ كثيرةً منها: الإنكارُ والتَّوبيخُ والتّعجُّبُ -أوِ التَّعجِيبُ- والعِتَابُ والتَّهويلُ والتَّخويفُ والتَّهديدُ والوَعيدُ والتّنبيهُ والنَّهْيُ والتّحقيرُ والاستبعادُ والتَّهكُّمُ والاستهزاءُ وغيْرُ ذلكَ، ولذلكَ قالَ ابْنُ عَطِيّةَ في تفسيرِهِ: "استفهامٌ بمعنى تقريرٍ، أي أنَّهُ كانَ يَعلَمُ ما يَعبُدونَ، وإنَّما سأل لتقريرِ الحُجَّةِ"، وقالَ أبوحَيَّانَ في البحرِ المُحِيْطِ: "استفهامٌ بمعنى التّحقيرِ والتَّقريرِ" أي تقريرُ الحُجَّةِ عليهِم، والمُرادُ بالتّقريرِ عندَ أهلِ البلاغةِ هُوَ الإقرارُ والتّوكيدُ لا طَلَبُ الجوابِ، وقالَ البَيْضاويُّ في تفسيْرِهِ: "سألَهُم لِيُرِيَهُم أنَّ ما يَعبُدونَهُ لا يَستحِقُّ العبادةَ"، وقالَ القَوْنَوِيُّ في حاشِيَتِهِ على تفسيرِ البَيْضاويّ: "وحاصِلُهُ أنَّ السُّؤالَ هُنا للإنكارِ لا للاستعلامِ" أي لا لِطَلَبِ العِلْمِ لأنّهُ كان يَعلَمُ حالَهُم وإنّما سألَهُم للتَّوبيخِ، وقالَ البَغَوِيُّ في تفسيرِهِ: "استفهامُ توبيخٍ"، وقالَ الرَّازِيُّ: "فقالَ لَهُم ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، وكانَ إبراهيمُ -عليهِ السَّلامُ- يَعلَمُ أنّهُم عَبَدَةُ أصنامٍ ولكنَّهُ سألَهُم لِيُرِيَهُم أنَّ ما يَعبُدونَهُ لَيْس مِنِ استحقاقِ العبادةِ في شيءٍ"، وقالَ الرَّازيُّ أيضًا في تفسيرِهِ: "والمقصودُ بهذا الكلامِ تهجينُ هذهِ الطّريقةِ وتقبيحُها، فَيُفهَمُ مِن ذلكَ أنَّ سؤالَ سيّدِنا إبراهيمَ

كانَ سؤالَ إنكارٍ وتقْرِيعٍ لا سؤالَ طالِبٍ للجَوابِ"، وقالَهُ النّسَفيُّ في تفسيرِهِ المعروفِ، ومِثْلَ ذلكَ قالَ المُفسِّرونَ في تفسيرِ قولِهِ تَعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ في سورةِ الصَّافَّاتِ.

وأمَّا حديثُ مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ وأنّهُما يَسألانِ المَيْتَ عن دِيْنِهِ الّذي كانَ يعتقدُهُ في الدُّنيا فهُو أيضًا لا يُخالِفُ القاعدةَ المُقرَّرةَ عندَ العُلماءِ بالإجماعِ؛ لأنَّ الكافرَ يُجِيْبُ عمّا كان يَعتقدُهُ في الماضي، أي: ما دِينُكَ الّذي كُنتَ عليهِ في الدُّنيا؛ لأنّهُ عرَفَ الحقَّ وقد خرَجَ مِن دائرةِ التّكليفِ، فهُمَا يسألانِهِ عمّا كانَ عليهِ عندَما كانَ مُكلَّفًا، أمّا الآنَ فلِماذا يسألانِهِ عن حالِهِ الآنَ وهُما يَعرِفانِ حالَهُ الآنَ؟! لأنَّ الكافِرَ يُجِيْبُ عمّا كانَ يعتقدُهُ عندَما كانَ في الماضي لَا أنّهُ الآنَ على هذا الاعتقادِ، فيكونُ جوابُهُ كما لو قِيلَ لمسلمٍ كانَ قبلَ ذلكَ يهوديًّا: على أيِّ دينٍ كُنتَ قبلَ أنْ تُسْلِمَ؟ فيقولُ: كُنتُ على اليهوديَّةِ، فإنَّ هذا لَيْس مِنَ الّذي نتكلَّمُ عنهُ في شيءٍ. وفي الخِتَامِ نقولُ: إذا كانَ سَبُّ الكافرِ مَنْهِيًّا عنهُ عندَما يَجُرُّ إلى سَبِّ اللهِ تَعالى، فكيفَ بسؤالِهِ عن دِينِهِ إذا قُصِدَ منهُ ذلكَ؟! واللهُ تَعالى يَهْدِي مَن يَشاءُ واللهُ تَعالى أعلمُ وأحكمُ.

العقيدةُ الحَقّةُ المُنْجِيَةُ

اعلَموا -وفَّقكُمُ اللهُ تَعالى وبَصَّرَكُم- أنَّهُ قد قامَ الدَّليلُ العقلِيُّ والنَّقلِيُّ الصَّريحُ على تنزيهِ اللهِ تَعالى عنِ الحدِّ والجِهةِ والمكانِ وعن كلِّ صِفاتِ المخلوقينَ، وبهذا جاء كلُّ الأنْبياءِ -عليهِمُ السَّلامُ- وإليهِ دَعَوُا النّاسَ، لا خِلافَ في ذلكَ بينَ نبِيٍّ وآخَرَ، ومَن نَظَرَ في كتابِ اللهِ تَعالى وفي سُنَّةِ نبيِّهِ محمَّدٍ -عليهِ أفضلُ الصّلاةِ وأتمُّ التَّسليمِ- نَظَرَ مُنْصِفٍ، وأَعمَلَ عقلَهُ السَّليمَ كما ينبغي، قادَهُ الدَّليلُ إلى اعتقادِ تنزيهِ اللهِ تَعالى عن مُشابَهةِ المخلوقاتِ لا مَحالَةَ، أمَّا مَنِ احتَكَمَ إلى الوَهْمِ فبَنَى عقيدتَهُ على مُقتضى ذلكَ؛ قادَهُ الوَهْمُ في هذهِ الحالةِ إلى الحَيْرَةِ والضَّلالِ والتَّشبيهِ والضَّياعِ والهَلَاكِ، وسيأتي تعريفُ الوَهْمِ للقارِئِ فيما يلِي، ولا ينبغي للمَرْءِ أن يَجعلَ الوَهْمَ قاعدةً يَبْنِي عليها عقيدتَهُ، وفي هذا المعنى أَنشَدَ بعضُهُم:

قُلْ لِلمُشَبِّهةِ الّذِينَ تَجاوَزُوا ... حُجَجَ العقولِ بكلِّ قولٍ مُنْكَرِ
يا وَيْحَكُم قِسْتُمْ صِفاتِ مَلِيكِكُم ... بصِفاتِكُم هذا قياسُ الأَخْسَرِ
أيُقاسُ صانِعُ صَنْعَةٍ بِصَنِيْعِهِ ... أيُقاسُ كاتِبُ أَسْطُرٍ بالأَسْطُرِ

وسأُبَيِّنُ لكُم إنْ شاء اللهُ تَعالى بعضَ الأدِلّةِ -وهِيَ غَيْضٌ مِن فَيْضٍ ونُقطةٌ مِن بحرِ الدّلائلِ- على تنزيهِ اللهِ تَعالى عن مُشابَهةِ المخلوقينَ، وخطورةَ اعتقادِ التَّشبيهِ والتَّجسيمِ بحقِّ اللهِ تَعالى؛ فأقولُ وباللهِ تَعالى التَّوفيقُ:

مَن كان ذا لُبٍّ يَكْفِيْهِ أنْ يَقِفَ عندَ قولِ اللهِ تَعالى في سورةِ الشُّورى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ فهِي أصرحُ آيةٍ قُرآنِيَّةٍ في تنزيهِ اللهِ تَعالى التَّنزيهَ الكُلِّيَّ؛ لأنّهُ لو كانَ مُتحيِّزًا في مكانٍ لكانَ جِسمًا ولكانَ لَهُ أمثالٌ وأبعادٌ